النص المثقف وأسئلة الكونية
إطلالة على رواية Printemps لرشيد بوجدرة

أ.د. عبد الوهاب شعلان
جامعة سوق أهراس

الملخص

يواصل رشيد بوجدرة في روايته الأخيرة "ربيع" إغناء تجربته الروائية، من خلال فتحها على آفاق رحبة من التاريخ والفلسفة والمعرفة الإنسانية. لذا نلحظ احتشاد أعلام الفكر العربي الإسلامي والفكر الغربي، وحضور الصوفية المسلمين إلى جانب فلاسفة العقلانية والإلحاد في أوروبا، وحيث يتقاطع السهروردي مع روزا لوكسمبورغ، وابن خلدون مع فرانسيس بيكون، والجاحظ مع هوميرويس...

وتطرح دراستنا – تأسيسا على ذلك – سؤال العلاقة بين الرواية المثقفة وحدود النزعة الكونية.

Résumé

Dans son nouveau roman intitulé "Printemps ",Rachid Boudjedra ne cesse d'enrichir son expérience romanesque en procédant a une ouverture sur d'autres pistes :l'Histoire ,la philosophie et le savoir humain. On constate alors , une présence remarquable des célèbres penseurs de l'islam et de l'occident , ou se côtoient des soufis musulmans et des des philosophes du rationalisme et athéisme en Europe et Se croisent Sohrawardi et Rosa Luxembourg , Ibn Khaldoun et Francis Bacon, Jahiz et Homère …

Sur cette base nous voulons pencher sur la question suivante : quelles sont les limites de l'universalisme pour un roman "intellectuel"?

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/582

هل يمكن للمعرفة المتبحرة Erudition أن تصنع الرواية؟ ذلك هو الإشكال المحوري الذي من خلاله نروم معاشرة printemps(1) آخر أعمال رشيد بوجدرة الذي ظل يبهرنا في كل مرة بعوالمه الروائية التي تحتشد فيها المعارف والثقافات، وتتداخل فيها النصوص والمرجعيات التراثية والحداثية، العربية والغربية والإنسانية، بصورة تجعل النص عصيّا، متأبيّا، جموحا، صعب القياد، لاسيما مع هذه اللغة النافرة، الهادرة، المندفعة مثل السيل الجارف.

إذن، هل ينتهي الركام الثقافي إلى تأثيث ديكوري يغطي الخسارات الأدبية الفادحة على مستوى البناء والمعمار السردي وخاصة قول الشرط الإنساني La condition humaine بوصفه سر الرواية وجوهرها، أم أنه يسهم بعمق في تأسيس كل ذلك؟ وهل يبني التبحر أثرا أدبيا un chefs d'œuvre بالضرورة؟

خروقات الاديولوجيا العمياء:

يجوس بوجدرة خلال عوالم ذاتية دفينة أثيرة عنده، يحضر فيها الإنسان المأزوم في مجتمع الضبط والاعتقال حيث تتحول المؤسسات والقيم الاجتماعية إلى آلة جهنمية للرقابة والقهر كما يقول ميشال فوكو M . Foucault عن الجنون والسجن والمرض والعيادة في مجتمع الاستغلال الرأسمالي الذي تحولت فيه قيم الحداثة إلى أوهام وأغلال.

يحضر عند بوجدرة الكائن – وليس البطل – المعذب، المقهور على مستوى العلاقات الاجتماعية، فريسة الهواجس والصراعات النفسية شأن ثلج Teldj الصوت المهيمن في printemps، فتاة في الثلاثينيات، أستاذة أدب الحب la érotique literature عند العرب في جامعة الجزائر، قضت سنتين في الصين في تدريس اللغة والحضارة العربيتين في جامعة شنغهاي، وانتهى بها الأمر إلى عشق عارم للثقافة الصينية وهيام لم تتحرر منه، وهي فوق كل ذلك بطلة رياضية في 400 متر.

تراكم ثلج انهياراتها الوجودية والاجتماعية عبر صدمات الطفولة، وتتعمق أكثر في فترة التسعينيات عندما تبصر أمها تذبح ويقطع رأسها أمام عيادة ديبوسي Debussy وسط الجزائر حيث كانت تعمل قابلة منذ ذلك الحدث المرعب حولت ثلج أفقها نحو والدها

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/582

سليم، أستاذ الرياضيات وفلسفة العلوم في الجامعة، والعالم الإستيمولوجي المولع بالبحث في تاريخ العلوم عند العرب في عصر الحضارة الإسلامية الذهبي، المأخوذ باكتشافات العالم الفلكي والرياضي ألوغ بيك Ouloug Beg المتنقل بين سمرقند وطشقند وبخارى في أوزبكستان، على خطى هذا العالم، ملقيا المحاضرات ومسهما في الندوات بدافع من هذه الرغبة الإبستيمولوجية الجامحة، ولكن أيضا من أجل نسيان محاولة اغتصاب ثلج ومقتل زوجته الوحشي واغتيال المحلل النفساني محفوظ بوسبسي (Printemps – ص48 – 49).

عبر هذه المصائر التراجيدية، وهذا التحول نحو المعرفة بوحي من الأب، تغرق ثلج في تأملات عميقة عن حالة العالم الفوضوية l'état chaotique du monde وحروبه المدمرة التي طالت القرن العشرين وما انجر عنها من مآس، يتراءى لها العالم العربي في انكساراته وتصدعاته التاريخية من اللحظة الكولونيالية المربكة إلى وهم الدولة الوطنية وصولا إلى سراب الثورة أو الربيع العربي.

تقدم الرواية ما يشبه البيان Manifeste عن أطروحة المؤامرة complot التي حركت هذه الانتفاضات الشعبية، فعبر تصريحات مباشرة من قبل ثلج أوسيلم تنساب الايديولوجيا الصارخة والموقف السياسي الذي لا يشكل على أحد. يكفي أن تصرخ ثلج في وجه أصدقائها «ما هذه القضية التونسية أيها الأصدقاء؟ ...ما هذه القضية ؟ أليست مؤامرة أكتوبر 1988 في الجزائر؟ ...» (Printemps ص44) . وتبلغ المواجهة أوجهها في هذه العبارة: Cette merde de révolution

تقاوم الرواية هذه اللحظة التاريخية دون مواربة أو تخف أو أي شكل من أشكال التستر الاستعاري و المجازي، تطلقها حقيقة قوية هادرة وليس جيشا من الاستعارات كما يقول نيتشه عن الحقيقة. نحن إذن أمام إدانة لا غبار عليها لهذا الربيع الذي بدا– وفق الموقف السائد في النص – خاليا من قيم الثورة و تقاليدها عبر التاريخ، فالثورة – دائما حسب هذا المنظور– هي وعي سياسي جمعي مؤلم Une conscience politique douloureuse حيث لا أثر لذلك في هذه الحركة العفوية التي وقودها صبية ينقادون دون تبصر لينتهوا ضحية القوى المتربصة من الإسلاميين والنظام ما بعد الليبرالي Ultra- libéral القديم، تنقاد

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/582

الجموع الشعبية هادرة، عمياء، متعثرة نحو حتفها التاريخي، تماما كما أطلق عليهم لويس فرديناند سلين L. F. céline: salauds de pauvres (Printemps). ص 106).

منذ ذلك العنوان الماكر Printemps، لا تكف الرواية عن الصهيل في وجه هذا المشروع – المؤامرة متدثرة بلبوس ماركسية أورثوذكسية، ترى أن غياب الوعي الطبقي والبرنامج السياسي الواضح والأفق الاقتصادي، كل ذلك دليل على حركة عمياء خارج منطق التاريخ وتناقضاته، مصيرها التلاشي والسقوط الحتمي.

تنساب الإيديولوجيا محدثة تصدعات وارتباكات عنيفة في هذا النص على الرغم من مقاطعه الكثيرة التي تتبرج فيها شعرية باذخة، تطاول أعنان السماء، بلغة متأنقة وفاتنة. ولكن الإيديولوجيا دائما بلا بصيرة، تقتحم المتخيل في أشكال يعسر تلافيها. وها هو بوجذرة نفسه يتوجس منها: « إنني أخشى دائما أن تنزلق نحو النص الروائي، يمكننا أن نقول ذلك بطريقة ايديولوجية وتاريخية، ولكن ذاك ليس مهمتي، إنه عمل المؤرخين، تنحصر زاوية نظري في الانفعال والحدس، ومهما كانت طبيعة الحدث يجب أن نغطيه بشيء من الشعرية في الرواية»(2) كي لا تستحيل ضربا من البيان أو المرافعة .

هل عجزت الشعرية المتعالية عن كبح جماح الايديولوجيا المتمردة أم أن منطق الرواية يقتضي – بين الحين والآخر – أن نجهر بآرائنا و مواقفنا ونصدع بها من منطلق أن من كان عنده ما يقول فليكتب نثرا ومن لم يكن عنده ما يقول فليكتب شعرا كما قال غوته، أو أن الشعراء هم قوم يترفعون عن اللغة أن تكون نفعية، إنهم لا يستخدمون اللغة بل يخدمونها في نظر سارتر، فيما يتحمل الخطاب النثري والروائي خصوصا أعباء التواصل و الإفهام وفق مقولة الجاحظ. هذه مسألة مزمنة وشائكة، وأي روائي يستطيع أن يفلت من عقالها؟

وإذن، هل نحن أمام العائق المحوري في العمل الروائي أمام كل نزعة تروم الكونية وتتوق إلى الإطلال على مرافئ العالمية ؟

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/582

الرواية و مآزق الفكر المتبحّر Erudition

يرمي بنا بوجدرة في أعماق بحار لا ضفاف لها من المعرفة والفلسفة والتاريخ والحضارة، محبرا عملا روائيا مستعصيا عن قراء تعوزهم العدة الثقافية الغنية، ولا عجب فقد عودنا هذا الضرب من الكتابة « المستفزّة المؤسسة على نجاح الفضيحة والتي تهز الأركان و تثير الجدل ....كتابة مبنية على مبدأ الجمع بين المتعدد و المتنافر » (3). وعليه تحضر الثقافة الإسلامية بكل غناها إلى جنب الثقافات العالمية برموزها ونصوصها، يتخلل كل ذلك محطات هامة من تاريخ الجزائر في جوانبه اللامقولة واللامفكر فيها Le non dit et l'impensé بتعبير أركون، منظورا إليها بعيون الروائي الماكرة.

مناوشات روائية لتاريخ الطمس و العمى الرمزي:

يؤرق تاريخ الجزائر ثلج ووالدها كما يؤرق بوجدرة، فعبر تأملات و حوارات طويلة تستحضر رموز هذا التاريخ في صورها الإشكالية، فمن أندريه ماندوز A.Mandouzeأستاذ الثقافة اللاتينية في جامعة الجزائر، عاشق القديس أغسطين Saint Augustin ،المنقب في آثاره، المناضل اليساري – الكاثوليكي- الذي ساند بشجاعة والتزام فكري متبصر المقاومة الجزائرية، إلى المونسينيور ديفال Duval Monsligneur أسقف الجزائر، صاحب النزعة الإنسانية العالية، والالتزام التاريخي الواضح تجاه قضايا المضطهدين في العالم، وموقفه الشجاع من الثورة الجزائرية يبدو أنه قد أعاد التوازن لتاريخ الكنيسة الكاثوليكية المعاضد للحركة الكولونيالية.

وتخصص صفحات كثيرة لموريس أودين M .Audin أستاذ الرياضيات اللامع في في جامعة الجزائر، عضو الحزب الشيوعي المتعاطف مع جبهة التحرير منذ 1955" (Printemps ص 196)، الذي قضت عليه القوات الفرنسية دون أن تظهر جثته إلى حد الآن ولم يتجاوز سن الخامسة والعشرين، قتل غدرا وبوحشية نادرة كما قتل من قبله شهيد الاشراق الصوفي شهاب الدين السهروردي وفي مثل سنه (في حين يرى عبد الرحمن بدوي أنه قتل في السادسة والثلاثين أو الثامنة والثلاثين كما ورد في: شخصيات قلقة في الإسلام). وليس ما يجمع بينهما

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/582

هو النهاية التراجيدية لكليهما، ولكن أكثر من ذلك هذا الالتزام الفكري وجرأة التخندق في صف الحق ثم روح التصالح بين الشرق والغرب بين أجنحة الإنسانية، كان أودين فرنسيا مناهضا لفرنسا الكولونيالية، منخرطا في حركة تحرير شعب مضطهد لا يقاسمه سوى جوع الإنسان للحق والحرية، وكان السهروردي «أول من رفا بأنامله العارفة وخيوط أفكاره النورانية ثوب الفلسفة ولاءم شقيها فجمع الميراثين الفلسفيين القديمين المختلفين شرقا وغربا في حجر الإسلام»(4).

ويطل فرانز فانون F. Fanon المنظر المتميز لسيكولوجيا الإنسان المستعمر Colonisé، الذي واجه بشجاعة معرفية نادرة مدرسة الجزائر Ecole d'Alger في التحليل النفسي بوصفها مدرسة تكرس المتطور الكولونيالي للفرد القابل بطبيعته للخضوع والعبودية الطوعية La servitude volentaire، لقد «ثار على الطرق المستعملة إلى ذلك الحين مع المرضى: فقد ظل أغلب الأطباء أوفياء للممارسات القمعية التي أدانها التيار التجديدي» (5) الذي كان فانون أحد دعاته في فرنسا.

تجوس الرواية خلال بعض الشخصيات الإشكالية التي لا تزال تثير الجدل إل يومنا هذا مثل الأمير عبد القادر وألبير كامي، وهما الشخصيتان الأكثر حضورا على مستوى الكتابة التاريخية والروائية في الجزائر (6).

يحضر الأمير عبد القادر في صوره المتنازع فيها، موزعا بين منظور التعالي والتقديس من ناحية والتشكيك والريبة في ألشخصيته والمواقف من ناحية أخرى. فالجد سيدي حسان – مثلا – يظهر ميلا شديدا للأمير ولكنه يأخذ عليه سذاجته السياسية إزاء الجنرال بيجو Bugeaud المحنك، إنه لم يتقبل كيف أمضى الأمير معاهدة التافنة سنة 1848، بيد أنه يلتمس له العذر في كبر السن و عدم احتمال مآسي الحرب والتدمير والمعاناة التي طالت الأهالي.

وتبقى هذه الشخصية كثيرة الالتباس شديدة الغموض، مختلفا فيها، تقاطعت فيها الحقائق والأوهام بصورة لا يمكن الفصل بينهما.الأمير المقاوم، المهادن، المستسلم، الماسوني، مؤسس الدولة الجزائرية، المعجب بجنرالات فرنسا، الصوفي، الشاعر، الانساني النزعة ...إلى غير ذلك

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/582

من الأوصاف، حيث تجد كل صفة نقيضها في ذاته، كما قال رولان بارت R. Barthes عن نفسه في أول درس له بالكوليج دوفرانس College de France

إن صورة الأمير عبد القادر – وهو في عز المقاومة ضد الفرنسيين– يتبادل معهم الرسائل وخطابات الود والإعجاب، قد أسالت كثيرا من حبر المؤرخين والروائين، ففي رسالة إلى مونسنيور باقي Monseigneur pavy الذي يكن له إعجابا شديدا يقول الأمير: «لقد تلقيت رسالتك البليغة وكتابك اللامع، وإن ما قمنا به إزاء المسيحيين، كان يجب أن نقوم به من باب الوفاء للإيمان الإسلامي واحترام حقوق الإنسانية، ذلك أن كل المخلوقات هي عائلة الله، وأكثرهم محبة عند الله هم الأكثر نفعا لعائلته، وإن كل الأديان التي جاء بها الأنبياء منذ آدم إلى غاية محمد تقوم على مبدأين اثنين: إجلال الله العلي والتعاطف مع خليقته» (7). هذه الروح الإنسانية العالية، وهذا الأفق الواسع من التعاطف والحوار والتواصل بين بني البشر التي استقاها من أستاذه ابن عربي الذي يقول ألا دين له إلا دين الحب:

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني و إيماني

هذه الروح المتفتحة الحرة جعلت البعض يتحدث عن آثار ثقافة ماسونية les francs macons وتحولت مادة للإثارة أكثر منها للتحقيق التاريخي النزيه.

والشخصية الإشكالية الأخرى هي ألبير كامي A. Camus. حضور عابر – لا محالة– في الرواية ولكنه عميق الدلالة: يسجل سيلم ابنته ثلج في نادي بلكور الرياضي الذي يكن له حبا ووفاء شديدين، ويقضي سيلم أوقاتا طويلة في مقهى مناصري النادي المقابل للمبنى الذي كان يسكنه ألبير كامي مع أسرته، فكامي نفسه كان رياضيا ومن أنصار النادي في فترة الأربعينيات. يقف سيلم متوجها إلى النيابة مخاطبا طيف كامي: «يا للأسف، إنني هنا، كان يمكن أن يكون له مصير جزائري حقيقي ...يا للأسف، إنه كاتب كبير»(Printemps ص262) Dommage, çuila , il aurait pu avoir un vrai destin algerien.... dommage ,quel grand écrivain.....

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/582

صرخة مثقف جزائري إزاء هذه الشخصية التي ما فتئت تتستر وتتخفى ويلفها الغموض الشديد، لا سيما فيما يتصل بمواقفها تجاها الثورة والاستقلال الوطني.

كان كامي مناصرا شديدا لجزائر صنعها مخياله Son Algérie، اختزلها في العدالة الاجتماعية ومناهضة كافة أشكال القهر والتمييز والتعذيب وإتاحة الحقوق والحريات، ويمكن أن يتحقق ذلك عبر هدنة Trêve (لنتذكر نداءه الشهير لهذه الهدنة سنة 1956 المعروف ب: Appelaune trevecivile)أو مجلس نيابي يضمن حق المنتخبين الأهالي، أو حتى في إطار فيدرالية أو غيرها من أشكال التنظيم السياسي الذي يبقي الجزائر تحت السلطة الفرنسية. وباختصار لم يكن كامي أبدا مؤمنا بالاستقلال الذي كان يمثل لديه حلما تمليه العاطفة وليس العق، أما الثورة، فهي عنف أعمى ضحيته الأبرياء، ويمكن أن تكون أمه الضحية الأولى. وكان واضحا في خطاب تسلمه جائزة نوبل: «إنني أومن بالعدالة، ولكنني سأدافع عن أمي قبل العدالة » Je crois à la justice, mais je défendrais ma mere avant la justice.(8)

ظل كامي متشبثا بتصور خاص للجزائر منزوعة الجذور عرفت ولادتها مع مشروع الاستيطان، وبدا ذلك واضحا بشكل خاص في رواية الغريب L'etranger . يقتل ميرسو Meursault العربي الذي لا اسم له ولا هوية ولا تاريخ ولا ذاكرة . ويعلن بوجذرة صراحة موقفه من كامي بأنه ليس جزائريا، وأن هناك مراسلات بينه وبين الشاعر روني شار René Char، يظهر فيها كلاهما حقدا دفينا للجزائر وخوفا شديدا من الاستقــلال (9).

تاريخ المقاومة والاستسلام، تاريخ التناقض والطمس، تاريخ العمى الرمزي بعبارة بارت، حيث الأسئلة المعلقة والشكوك والهواجس والتأويلات على شاكلة« لماذا قتلت المقاومة 300 من سكان ملوزة في ماي 1957؟ لماذا قتل العقيد عميروش عددا من المثقفين من ذوي المستوى العالي؟ لماذا تآمر بوصوف ضد رفيقه في السلاح عبان رمضان بتواطؤ مع كريم بلقاسم؟ ...» (10)وغيرها من الأسئلة المربكة من تاريخ الطمس والتستر.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/582

وقفات على ضفاف الثقافة الإسلامية:

وإذا غادرنا تاريخ الجزائر المرتبك، وبمنا شطرنا وجهة الثقافة الإسلامية، فإننا نجد أنفسنا أمام سواحل وضفاف بعيدة ومترامية، لاسيما إذا علمنا ولع بوجدرة بهذه الثقافة وعشقه الشديد للغة العربية (11)، فبدءا بثلج نفسها التي أعدت أطروحة دكتوراه عن بشار بن برد أحد أهم شعراء الرفض في تاريخ الشعر العربي، وتلقت بسبب ذلك رسائل تهديد من قبل الإسلاميين، إلى والدها سيلم العالم الإبستيمولوجي المهتم بتاريخ العلوم عند العرب، المعجب بأولوغ بيك Ouleg Beg العلم الفلكي والفيزيائي الذي أنشأ بين 1424 و1429 أكبر مرصد للنجوم طوله 60 م محددا المعلومات عن 1018 نجما، متمما بذلك أعمال بطليموس (Printemps ص32)، ولكنه – كغيره من قادة الفكر- لم يسلم من مطاردة الفقهاء الأرثوذكسيين وحراس الشريعة الموجودين في كل عصر وفي كل الحضارات، فقد انتهى به الأمر إلى قتله بوحشية بتدبير من ابنه في خضم صراع سياسي، قبل سقوط غرناطة بخمسين عامـــا (1442)، ومنه تبدأ رحلة العالم الإسلامي نحو السقوط والانحطاط الحضاري. كان أولوغ بيك بحسب ما ورد في الرواية – يقول:« إن الأديان تتبخر مثل البخـار والممالك تنقرض، ولكن أعمال وأبحاث العلماء تظل خالـــدة» (Printemps ص33).

يتأمل سيلم تاريخ العالم الإسلامي، مطلا على محنة هذا الفلكي ومصيره التراجيدي المنذر بقرون طويلة من القهر والجهل وسيادة الفكر الأسطوري ومطاردة العقل والفلسفة والتفكير الحر، كل ذلك بعد سقوط غرناطة 1492، لتنغلق الدائرة مع تنامي تيارات الفكر الدوغمائي الذي أجهز على ما تبقى من العقل والحداثة والتنوير، والمثال الواضح في ذلك هو الوهابية، حيث تبلغ مقاومة التجديد والتعلق بالرسوم والأشكال والنزعة الجبرية والانغلاق الفقهي ومحاربة التأويل مبلغا لا نظير له في تاريخ الإسلام.

وإذ تحضر المعرفة المتبحرة وتجوس خلال النص، متسللة إلى ثناياه، فإنها تفعل ما تفعله الإيديولوجيا، بل تتحول نفسها إلى آلة إيديولوجية تسهم في الفرز، والتصريح بالمواقف والتخندق الفكري والسياسي، حيث يحدث الخطاب صراعا بين قطبي الحداثة والنكوص،

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/582

منتصرا بشكل واضح للأول، معليا صوته مقويا حضوره، وبذلك يوشك النص عبر هذا الحشد المعرفي أن يفقد أحد أهم ركائز الرواية وهي الحوارية Dialogisme بمفهوم ميخائيل باختين، حيث تظل أصوات النص حاضرة في صراعها دون حسم.

صحيح أن بوجدرة لا يرى الأصولية في الإسلام فحسب، فهناك أيضا أصوليات بروتستانتية وكاثولكية و يهودية و بوذية...(12)، ولكن التصريح شيء وبناء العالم الروائي بأدوات الصراع والحوارية والدرامية مسألة أخرى، لا جرم أن ذلك رهان ليس من السهل كسبه.

إننا نقول ذلك ونحن نرى الأسماء والرموز والنصوص التي تزاخم الرواية وتخلق فيها رمادا ثقافيا كما تقول كرستييفا J.kreistiva تدور كلها في فلك ما اتفق عليه أغلب المفكرين والروائيين العرب من أنها أقطاب الحداثة والعقلانية والأنوار في مقابل ثقافة الماضوية، والاجترار، وعليه نجد ثلج تحاور أباها عن الخوارزمي وعن ابن خلدون وفلسفة التاريخية المادية (Printemps ص60)، معرجة على ابن رشد، وثورة القرامطة التي أسست جمهورية شيوعية في تخوم بغداد ودامت ما يقارب القرنين (Printempsص70). وما أشد ولع بوجدرة برموز الثورة واليسار في التاريخ الإسلامي، وما أكثر تضميناته لذلك في نصوصه « تمرد السندباد غرب فارس ودام سنتين ...تمرد المقنع في خراسان ودام عشر سنوات... تمرد بابك بالعراق ودام سبع سنوات ...تمرد الزنج في بلاد مابين النهرين دام خمس عشرة سنة ...تمرد القرامطة في أرجاء الامبراطورية الإسلامية ودام أربعمائة وخمسين سنة...» (13)، دون القفز على آباء الإشراق محي الدين ابن عربي والسهرودي، بل تحضر نصوص بكاملها لابن بطوطة عن نساء الصين وللجاحظ عن الحيوان ...كما تقع الإشارة إلى الرموز المكانية مثل تومبكتو إحدى أهم و أخطر الحواضر الإسلامية في بلاد المغرب بمخطوطاتها النفسية ومكتباتها العريقة وأعلامها الكثر في كافة مجالات المعرفة، والتي ما فتئت تتعرض للحرق والنهب والغزو على مر العصور.

إن احتشاد الرموز والأعلام والنصوص والمعارف الإسلامية ليس جديدا عند بوجدرة ولكن printemps تجاوزت كل أعماله في هذا المضمار، فإذا بنا أمام سفر موسوعي في منتهى الغزارة والغنى .«أنا و منذ بدايتي أبهرت بحداثة النص القديم، بدءا بالقرآن وكل الشعراء

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/582

قبل الإسلام وبعده، حداثة الشعرية العربية، ثم حداثة الفلاسفة المسلمين من ابن رشد، وحتى ابن خلدون المؤرخ » (14)كما صرح.

إطلالات على ثقافات عالمية:

يعاضد هذه الثقافة الإسلامية الغنية حضور لافت للبعد الإنساني والعالمي، فثلج المنبهرة بالحضارة الصينية تقيم علاقة مع فتاة اسبانية هي نياف (نياف تعني الثلج باللغة الاسبانية، لنلاحظ الدلالة) وهي ابنة مناضل إسباني لاجئ في الجزائر بسبب مقاومته نظام فرانكو في بلاده، يعمل جراحا في عيادة ديبوسي التي ذبحت بقربها والدة ثلج. وبذكر إسبانيا لا يفوتنا الإشارة إلى عشقها الشديد للفيلسوف اليهودي الأندلسي موسى بن ميمون Maimounideوبخاصة كتابه الخطير "دليل الحائرين" Le guide des égares et des perplexes(15)، ومنه يطل النص على تاريخ الحوار الإسلامي اليهودي، مشيرا إلى دور المسلمين في حماية اليهود من النازية، فمسجد باريس كان يأوي ما يقارب 1732يهوديا بين 1940 – 1944 في الوقت الذي كان فيه اليهود في الجزائر في تلك الفترة يتعرضون لأبشع أنواع القهر على يد الأقدام السود الموالين للماريشال بيتان Petain في عهد حكومة فيشي Vichy«كانت ثلج تحب هذا السخاء، وهذه الروح الإنسانية الإسلامية » (Printemps ص140).

تنهل ثلج من فتوحات الثقافة الغربية والعالمية، مغتنية برصيدها القوي والعميق في الثقافة الإسلامية، فهي إذ تترجم رواية "الصخب والعنف" le bruit et la fureur لفولكنر، تقع في شراك الرسام البريطاني فرانسيس بيكون F. Bacon(غير العالم فرانسيس بيكون) بسبب طبيعة لوحاته القائمة على التشوهات الجسدية المعبّرة عن حالات القلق والغثيان، بيكون «رسام الشرط الانساني الحقيقي» (Printemps ص113- 114) كما تقول. نقرأ روزا لوكمسمبورغ R. Luxembourgالمناضلة والمنظرة العمالية الالمانية. وتعجب بمقولتها: الهدف ليس مهما، وإنما المهم الحركة (Printemps p. 248) واضعة بذلك أسس فلسفة البراكسيس Praxis الأثيرة في الفكر اليساري أو مبدأ الحركة والتغيير والتحول

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/582

الذي دافع عنه الفيلسوف اليوناني هراقليطس Heraclite حيث العالـم «قائم في الصيرورة والتغير الموجود وحده وما الوجود الثابت إلا وهم، فكل يوجد في عالمنا في حالة تغير دائم...»(16)، أو ما عبر عنه هراقليطس نفسه في مقولته الشهيرة "إننا لا نسبح مرتين في النهر نفسه"، فالنهر نفسه ولكن الماء يتجدد. وليس عجبا أن تكون افتتاحيه Printemps بمقولة هراقليطس: "الناس اليقظين يسكنون العالم نفسه"

نعم كل هذه الرموز المستحضرة في النص من الثقافة الإسلامية أو الثقافات العالمية ممن ذكر أو لم يذكر مثل هوميروس وبيكاسو Picasso ودي لاكروا De La Croix وسيليين L. F. celine وكلود سيمون C.Simon... يسكنون العالم نفسه وإن تناءت بهم الأقطار وتباعدت الأمصار وطالت الأحقاب، فبوصفهم مثقفين فإنهم يتقاسمون المصائر المؤلمة والأقدار الغادرة، حضروا كلهم في وليمة Printemps

وسكنوا هذا البيت الروائي في ضيافة بوجدرة، يتعزى بهم عن حالة العالم التراجيدية.

وبالعودة إلى استحضار الغرب في الرواية، فإننا نلحظ غربين: غرب الهيمنة والتآمر كما يقول فؤاد زكريا وغرب الحداثة والأنوار، غرب يحركه لا وعي جمعي تتحكم فيه الهواجس والمخاوف والأبوية والعنصرية، ينظر إلى الصين دائما بوحي من فكرة "الخطر الأصفر" Le peril jaune، يخوض حروبا مدمرة إرضاء لنزواته الدفينة وأحكامه المسبقة المعششة في لا وعيه، يدمر أجناسا وثقافات ويبيدها: إبادة الهنود في أمريكا وأستراليا ونيوزيلاندا... ومحاولات الإبادة في إفريقيا (Printemps ص149)، حروب خاسرة في كوريا والفيتنام وكوبا والجزائر والصين والصومال وأفغانستان، غرف الغاز ومراكز الاعتقال وملايين القتلى بين الحربين العالميتين...حروب تافهة كما قال رابليه F. Rabelais. في هذا السياق تواجه ثلج صديقتها الاسبانية نياف، متهمة إياها بأنها ضحية عقدة استعمارية امبريالية، وأنها نتاج الإيديولوجيا الغربية المكتفية بنفسها والواثقة من خطاها (Printemps ص171). وأخيرا غرب اليقظين بتعبير هراقليطس.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/582

خاتمة:

كان هاجسنا الأول في هذه القراءة العجلى أن نستجلي أثر المعرفة في حياكة الرواية، هل العمل الروائي العظيم والعالمي هو بالضرورة ينهل من مشارب ثقافية ويقدم وعيا ثقافيا متعددا لقرائه، أم أن التبحر – على النقيض من ذاك – هو عدو الرواية، بالنظر إلى أنه يجعلها تحيد عن مسارها ويقطعها عن روحها التي تتمثل في الغوص في الشرط الإنساني، ويحيل الروائي إلى كائن يستعرض التجارب والمعارف والقراءات دون نفاذ إلى روح الرواية.

ويمكن أن نخلص إلى أن Printemps لم تقو على مهادنة المعرفة المتبحرة والأيديولوجيا العمياء، فقد تسربتا إلى ثنايا النص، محدثتين شروخات عميقة فيه. ومهما كان المؤلف حذرا على غرار قول بوجدرة نفسه: «أترك ماركسيتي وشيوعيتي جانبا، وألتزم بمبادئ الإنسانية فقط، أنا كاتب ماركسي إنساني ومازلت مشبعا بثقافة عربية إسلامية أمازيغية ومنفتح على الثقافة الغربية» (17) فإن العمل لا يصمد أمام حقيقة الموقف المتسلط والاستعراض المعرفي، مما قلل من حظوظ قول الشرط الإنساني الذي هو جوهر الإبداع الروائي، وإن بقي هذا النص شعريا ومتأنقا إلى حدود كبيرة. ولكني على قناعة راسخة أن العالمية والإنسانية تتحققان عندما يحضر الإنسان في جوهره وليس في أعراضه.

إن الإبحار في مجاهل المعرفة قد يصنع عملا روائيا عظيما إذا تم الإنصات بذكاء لحكمة الرواية، ولكنه قد يستحيل معول تقويض. في تعليقه على مسرحية "الأيدي القذرة" لسارتر استحضر عبد الرحمن بدوي مقولة سان جوست Saint Just: "بنفس الأحجار تستطيع أن تشيد للحرية معبدا أو قبرا". وهي قوية الدلالة في هذا السياق.

الهوامش:

–آثرنا أن تكون الإحالات على الرواية في المتن.

1Boudjedra**, Printemps**, éd Barzakh, Alger, 2014.-Rachid

2-**Entretien avec Rachid boudjedra**, livresque, revue littérature, n°=6, mai- juin 2006, p22.

3-Najet khada, **Représentation de la Féminité dans le Roman algérien de la Langue Française**, o.p.u.Alger, 1331, p136-137

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/582

4– شهاب الدين السهروردي في الذكرى المئوية الثامنة لوفاته، كتاب تذكاري أشرف عليه إبراهيم مدكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1974، ص36.

5-Frantz Fanon**, Les Damnés de La Terre** ,ENAG ,Alger ,1987,p10.

6–كتب الكثير عن الأمير عبد القادر و ألبير كامي روائيا:

.La dernière Nuit de l' EmirAbdelkader djemaii,
Meursault Contre Enquête. Mohamed Daoud ,
.Dernier été d'un Jeune Homme Salim Bachi , le
. Hamid Grine, Aujourd'hui Meursault est mort

7-Abdelkader Djemai L**a Dernière Nuit de l'Emir**, ed seuil, paris, 2012, p 111 – 112.

8-Ahmed Taleb ibrahimi,**De la Colonisation à la Révolution Culturelle**, sned. Alger, 1973, p178.

9-**Entretien avec Rachid boudjedra**, El Wantan, quotidien national, 15 novembre 2014.

10-Rachid Boudjedra, **Les Figuiers de Barbarie,** éd Barzakh, Alger 2010,p39-40.

11–بخصوص تصريحات بوجدرة عن عشقه اللغة العربية ودفاعه المستميت عنها ة يمكن العودة إلى حواراته و دراسات عنه في كتاب: (زهرة ديك، **رشيد بوجدرة: هكذا تكلم...هكذا كتب**، دار الهدى، عين مليلة، 2013، ص25).

12-Abd elkader Djeghloul, **Lettres pour l'Algerie**, ed A.N.E.P , Alger,2000, p41

13–رشيد بوجدرة ، **المرث** ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1984،ص110–111.

14–زهرة ديك، **رشيد بوجدرة: هكذا تكلم...هكذا كتب**، دار الهدى، عين مليلة، 2013، ص116.

15–مثل موسى بن ميمون الصورة الساطعة للتعايش الحضاري الإسلامي اليهودي في الأندلس ، ورواية جاك أتالي : La confrérie des éveillés خير مثال على ذلك.

16–محمد جديدي، **الفلسفة الإغريقية**، منشورات الاختلاف – الجزائر – الدار العربية للعلوم ناشرون لبنان، ط1،2009،ص164.

17–زهرة ديك، **رشيد بوجدرة هكذا تكلم...هكذا كتب**، ص.365 .

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/582